٢

العهد الجديد

عندما أخبرت عرفات بأنني إسرائيلي من الجيل الحادي عشر، أخبرني بأنني فلسطيني أكثر منه

أرنون ميلتشان

في السادس من ديسمبر عام ١٩٤٤، ولد طفل في المستشفى الواقع بشارع بنيامين بمدينة روحوفوت اليهودية الصغيرة المؤثرة في ظل ما كان يُعرف بالانتداب الإنجليزي بـ«فلسطين».

كانت تلك أياماً قاسية متأرجحة فى التاريخ الإنسانى، حيث كانت «أوروبا» تشتعل والعديد من أعضاء العائلة الممتدة لذلك الطفل حديث الولادة قد قضوا نحبهم ومُحِي أثرهم. كانت تلك أحلك الساعات. ومع ذلك فقد أخبرنا الرئيس الإسرائيلى شمعون بيريز بأن أرنون قد وُلِد بينما كانت الشمس تبدأ فى الشروق، وعاش مذاك حياة مشرقة.

يمكن اقتفاء أسلافه من جانب أصلهم إلى المفسر التوراتى فى العصور الوسطى راشى، ومن الجانب الآخر حتى الملك داود تقريباً.

وقف والد دوف منفعلاً خارج الغرفة بينما أطلت الممرضة برأسها من الباب لتعلن إنه ولد، وسرعان ما انهال عليه أفراد العائلة والأصدقاء يحتضنونه ويقبلونه ويقولون مبروك!

عاش سكان مدينة روحوفوت كعائلة واحدة. وتمازجت حياتهم العامة والخاصة. وساد شعور بأن الجميع يجلسون في نفس القارب، ويجدفون تجاه الشاطئ المجهول وفق ما كتبه جده حاييم إليعازر، والذى كان قد وصل لشواطئ الأرض "المهجورة" قادماً من بولندا في أواخر ثمانينيات القرن التاسع عشر.

اختار أبواه دوف وشوشانا لابنهما الوحيد اسم أرنون، وهو اسم توراتى لنهر يمر خلال جبال مؤاب والتي تقع حالياً في الأردن، ويجرى غرباً تجاه السواحل الشرقية للبحر الميت، وفى العهود القديمة كانت تلك مملكة المؤابيين، وكانوا قوماً عاشوا أغلب الوقت في صراع مع جيرانهم من بنى إسرائيل فى الغرب.

ومن المفارقات أن اسم العائلة ميلتشان مشتق من الكلمة البولندية ميلشيك والتى تعنى الصمت أو كتم السر، وهى فضيلة ستثبت جدواها فى السنوات التالية.

وفى عام ١٩٤٤ كانت روحوفوت مركزاً إقليمياً نشطاً يسكنه بضعة آلاف من السكان، وأحد أكثر المستوطنات ازدهاراً اقتصادياً بفلسطين تحت حكم الإنجليز. كانت تقع بين التلال المنحدرة والأرض الوارفة بأشجار البرتقال وكرمات العنب، والتى كدّ فى زراعتها جد أرنون، وكانت أحد تلك الأماكن التى لا يوصد أحد فيها بابه، وكان الأطفال يلعبون بحرية، وكان جميع الناس تقريباً يعرفون بعضهم.

نشأ أرنون فى عائلة كبيرة ممتدة، يركض ما بين كرمات العنب وبساتين الليمون ويلعب بلا نهاية مع أصدقائه فى الحقول المفتوحة بين البيوت حتى يحل الظلام، وباستثناء النزاع العربى الإسرائيلى الذى كان قائماً ، والذى لم يكن شأناً ذا أهمية كبيرة آنذاك، فقد كانت حياة أرنون رغيدة مثالية.

ذلك الإحساس كان النقيض التام لعالم البالغين من حوله، وما كان يجهله هذا الصبى، أن أحد أهم مصانع السلاح اليهودية كان مخفياً تحت قدميه، أسفل مخزن المدينة لتعبئة الحمضيات، وكانت عائلته تعمل فى تصنيع المتفجرات متخفية وراء مشروع السماد الخاص بهم، وكل هذا ضمن النضال الأشمل من أجل استقلال اليهود.

وفى مساء ٢٩ من نوفمبر عام ١٩٤٧، تجمع كل سكان المدينة بمن فيهم أرنون ذو الثلاث سنوات محمولاً بين ذراعى والدته شوشانا – حول المقهى الرئيسى وأنصتوا بعناية للمذياع بينما كان يعلن نتائج التصويت على قرار

الأمم المتحدة رقم ١٨١ .

وافق المجتمع الدولى على إنشاء وطن يهودى قومى بفلسطين، التى كانت تحت الانتداب البريطانى، وانتشرت بسرعة موجة عارمة من الفرح العفوى والارتياح ما بين الجموع، والذين بكوا ورقصوا وغنوا طوال الليل.

وبعد ٦ أشهر أعلنت إسرائيل استقلالها. بلد صغير يتألف أغلبه من المزارعين والتجار، والناجين من الهلوكوست والذين أصبح عليهم الاستعداد للمهمة المروعة لمواجهة الهجوم العسكرى المرتقب على "أرض الميعاد".

ولم يكن هناك وقت للاحتفال بعد الليلة الأولى، وكما توعدوا، هاجمت كل الدول العربية المحيطة الأمة الوليدة، ضعيفة التسليح، قليلة العدد، قبل أن تجمع شتات نفسها.

قُصِفت روحوفوت ٩ مرات جوياً من قبل القوات الجوية المصرية، وقتل وجرح عشرات الأفراد فى المدن الصغيرة، وقصفت العديد من المنازل ومبنى دار البلدية الأصلى، وكان على مسافة قصيرة من منزل ميلتشان، ودُمِر كلياً فى انفجار مدو، وهرع أرنون ذو الأربعة أعوام آنذاك مثل جميع الأفراد للاحتماء بالخندق المؤقت المحفور فى الباحة الخلفية لمنزله.

ستكون للمحرقة والنزاع العربى الإسرائيلى المستعر والذى تفجر من حوله أثناء طفولته المبكرة، بطبيعة الحال بالغ الأثر على معظم حياته ومواقفه، ومجازياً... لم يكن له أن يغادر روحوفوت بأسلوب فعلى.

وعلى مر السنين، تطورت المدينة ومحيطها المتاخم من المجتمع المتوسطى الزراعى العتيق والذى ساهم جد أرنون فى تأسيسه فى مطلع القرن إلى

مركز تكنولوجي وعلمي ضخم، مركز مصيرى لوجود إسرائيل نفسها. وتعد المنطقة كلها كعش دبابير عملاق، زاخرة بالأنشطة الأمنية بالغة السرية، وبمؤسسة بحثية مشهورة عالمياً، ومجهزة نووياً، وبقواعد صواريخ متوسطة المدى، وببرامج أسلحة كيماوية وبيولوجية شديدة التطور، وبأسطول نووى فى قاعدة تل نوف الجوية القريبة، ومصنع لإنتاج المياه الثقيلة، وأكثر من ذلك بكثير. ولعب أرنون دوراً فى تحقيق كل ذلك.

بعد عام من انتهاء الحرب فى ١٩٥٠، نشب خلاف بين والد أرنون وأعمامه الثلاثة حول من يتولى إدارة الأجزاء المختلفة فى شركة العائلة ميلتشان وأبنائه، وتم التوصل إلى اتفاق يتولى دوف والد ميلتشان بموجبه إدارة مشروع الأسمدة، ويتولى إخوته الآخرون بقية المشاريع، بما فيها شركة توزيع الوقود والتى سرعان ما أصبحت الجزء الأكثر ربحاً فى مشاريعهم. وشعر دوف بأنه مجبر على جمع أغراضه والرحيل عن روحوفوت مع زوجته وأبنائه، ليشق طريقه بشكل مستقل فى البلد الجديد.

غادر أرنون وأخته الصغيرة داليا ووالداه دوف وشوشانا، روحوفوت فى عام ١٩٥٢ للضواحى الشمالية المتنامية فى تل أبيب. وبعد أن أصبح مشروع الأسمدة منفصلاً عن شركة ميلتشان وأبنائه، أصبح دوف فى حاجة لاسم جديد لشركته. ومن منطلق الاحترام لجد أرنون ورأس العائلة حاييم إليعازر، أسمى دوف الشركة الجديدة الإخوة ميلتشان، بالرغم من أن إخوته لم يكن لهم أى نصيب فى الشركة على الإطلاق.

وكانت المكاتب الجديدة مقرها سوق الجملة الزراعى فى تل أبيب، على مقربة من وزارة الدفاع والموساد. كانت شركة داجون الشركة المجاورة

لشركة لتجارة الحبوب مملوكة لعائلة جيلرمان. وأصبح ابنهم دانى صديقاً مقرباً لأرنون، وبعد سنوات عديدة أصبح السفير الإسرائيلى إلى الأمم المتحدة.

وتصادف أن تزامنت طفولة أرنون مع السنوات الحاسمة الأولى فى تطور إسرائيل. ونشأ وسط النخبة الأشكينازية الأرستقراطية القديمة، بين أثرى الأثرياء وأكثرهم تعليماً في إسرائيل، والذين هاجروا من أوروبا في أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين. وكان هذا مجتمعاً يؤمن بأن مفاتيح المملكة - من عالم المشاريع والسياسة والمميزات - ملك لهم.

وفي تلك الحقبة بدأ والدا أرنون يلاحظان أن بعض سلوكيات ابنهما خارجة عن المألوف. وبالرغم من أنه كان متقد الذكاء فقد بدا مفرط النشاط وغير قادر على الجلوس حتى لفترات قصيرة.

وبالطبع فإن هذا النشاط المفرط يشمل أيضاً عوامل الشرود، والتململ، والتهور، وفى بعض الحالات كما فى حالة أرنون، الانجذاب للخطر "هناك جزء منى يريد أو يحتاج إلى فعل أشياء مخيفة. أحتاج لجرعة من الخطر كى أتنفسها!" هكذا قال.

ومن المعروف بعامة أن الناس المصابة بالنشاط المفرط عليهم أن يبحثوا عن وظائف تشمل ظروفاً سريعة التغير، وبيئات تتطلب التحفيز المستمر، ويتجنبوا الوظائف التى تنطوى على التكرار والتركيز المفرط على مهمة واحدة، سواء كانت عقلية أو بدنية، واختار أرنون ميلتشان الوظيفة المناسبة.

ومن أبرز الصفات التى كان يلاحظها أى شخص يراقب أرنون فى صباه

هى طاقته المتفجرة اللا محدودة، وكان هناك مكان واحد لتفريغ طاقته أثناء طفولته... وهو المجال الرياضى، وهو المجال الذى كاد أرنون أن يمتهنه. حيث مهدت قدراته البدنية الطبيعية، وطاقته المذهلة، وروحه التنافسية العالية له الطريق لقبوله فى أخوية النخبة لفريق مكابى تل أبيب للشباب، وهو فريق كرة القدم الأقوى فى البلد، وابتهج أرنون بشدة لذلك.

لكن كانت هناك مشكلة طفيفة. قبل بضع سنوات تم اختبار بصره وتم تشخيصه بأنه شديد الضعف. هذا الصبى لا يرى شيئاً هكذا قال طبيب العيون وهو يسلم والديه الروشتة الطبية لنظارة سميكة، التى ما زالت لازمة لأرنون حتى يومنا هذا. وبالرغم من أن التقدم فى فحص العيون قد جعل ذلك الأمر أكثر يسراً، لكن فى تلك الأيام كانت النظارات تصنع بالفعل من الزجاج، والأطفال الذين يضعون النظارات كانوا ينصحون بعدم الاشتراك فى أية رياضة التحام عدوانية، مثل كرة القدم، لتجنب إصابة العينين.

لم يفصح أرنون عن ضعف بصره، واستغرق مدربه وقتاً ليدرك أنه يعانى مشكلة، وعندما أدرك ذلك كان أرنون قد عزز مكانته كرأس حربة وكهداف متميز فى الفريق لثلاثة مواسم على التوالى.

واستمر فى لعب الكرة لسنوات. وكان يحدوه طموح متقد للعب فى فريق البالغين وكان واثقاً تماماً أنه سيقود فريقه مكابى تل أبيب إلى البطولة الوطنية كنجم للفريق. آمن أيضاً أنه سيقود الفريق الوطنى إلى النجاح العالمى، وسيدرب الفريق فى نهاية مسيرته الرياضية. وقد ذهل اللاعبون الصغار عندما عرفوا أن أرنون لا يزال يتمرن مع المنتخب الوطنى الإسرائيلى حتى يومنا هذا كلما أتيح له الوقت. ولا يزال من عشاق كرة القدم بعامة

والمنتخب الإسرائيلي خاصة.

وبخلاف كرة القدم، فقد أصبح لأرنون شغف آخر في تلك الحقبة وهو السينما. وكشاب متقد بالحماسة ذي خيال جامح، كان مفتوناً بالأفلام العالمية والتي شقت طريقها ببطء إلى دور العرض الأولى في تل أبيب، وتخيل نفسه يبتكر قصصه الخاصة ليراها العالم. إن كان ثمة مكان يستطيع أرنون الجلوس فيه ساكناً، فقد كان ذلك هو دار السينما. تلك الأفلام كانت أول اتصال حقيقي له بالعالم الخارجي الواسع ولم يحفز هذا خياله فحسب، بل كان بداية طموحه ليخرج إلى العالم ويغمر نفسه فيه، ليتذوق كل ما فيه.

وإذ دلت نتائجه في الامتحانات على أنه طفل موهوب، تم إرساله إلى مدرسة داخلية في هيرتفوردشاير في جنوب إنجلترا. وكانت تلك الترتيبات هي سبيل نخبة أغنى أغنياء إسرائيل لضمان تنشئة عالمية لأطفالهم. وعنى هذا أيضاً أن أطفالهم سيتعلمون لغة إضافية هامة بالإضافة إلى الانفتاح على ما اعتبروه الثقافة الراقية.

في حالة أرنون، أمل والداه أيضاً أن تساعده أجواء المدرسة الإعدادية الإنجليزية الصارمة على اكتساب الانضباط وضبط النفس، إذ لم يستطع اكتسابهما في البيئة شديدة العشوائية في إسرائيل.

كانت تلك الرحلة هي أول تعرض لأرنون للعالم الكبير خارج إسرائيل الصغيرة، وأول انفصال طويل عن أمن وأمان البيت الوحيد الذي عرفه في حياته. وكان متردداً في الانفصال عن عائلته وأصدقائه وبالأخص عن فريقه. لكنه كان تواقاً إلى مغامرته الجديدة.

لم تنجح مدرسة البنين الإنجليزية الداخلية فعلياً فى ترويض هذا الصبى المفعم بالطاقة، ولا فى إلزامه بمقعده والتركيز فى دروسه. لكن التعليم لم يكن كل شىء. فبعد التحاقه بالمدرسة بفترة وجيزة، اكتشف مدرب فريق كرة القدم بالمدرسة أن لديه نجماً جديداً فى فريقه، ومن حسن حظ أرنون أن لاعبى الكرة الموهوبين دائماً ما كانوا يُميَّزون فى المعاملة.

وفى مدرسة هيرتفوردشاير تعرض أرنون لأول مرة لوقائع بسيطة لمعاداة السامية. عندما فاز صديقه المقرب والتلميذ اليهودى الوحيد الآخر فى المدرسة يوسف ماليكسون ببطولة التنس ضخمة الجائزة، أذاع المدير جهاراً أن تلك أول مرة يفوز فيها طالب يهودى ببطولة التنس. وسواءٌ كان قد قالها بروح طيبة أم لا، فقد تبين للصبى أرنون فجأة أن الآخرين يميلون إلى النظر إليه بشكل مختلف بسبب أصوله.

ولا يزال أرنون ويوسف صديقين حميمين حتى يومنا هذا. وذات مساء تسلل الفتيان عبر كلاب الحراسة وعبر السياج المحكم الرهيب للهروب من المدرسة بقصد التردد على بار فى مدينة قريبة على أمل مقابلة الفتيات. ولدى عودتهما ضُبط الفتيان متلبسين بجرمهما. ولم يكن عقابهما قابلاً للتخفيف وكان هو الطرد على الملأ. واصطف كل التلاميذ ليشهدوا المذنبين، ليكونا عبرة للآخرين، وهما يقادان فى امتهان إلى خارج المدرسة.

لم يتقبل دوف ميلتشان ذلك ووضع ترتيباته لاصطحاب ابنه إلى خارج المدرسة بأرقى أسلوب ممكن. عندما وصل الشخص الذى كان له أن يصطحب أرنون وفقاً للموعد المحدد، ذهل الجميع عندما رأوا السيارة الرولز رويس الفارهة، ويقودها سائق إنجليزى مرتدياً حلة كلاسيكية. وإذ وصلت السيارة

لحظة توقفها لدى أسفل السلم فى باحة المدرسة، خرج السائق سريعاً من السيارة وخلع قبعته، وهرع ليفتح الباب للطالب المفصول، وسط ذهول من كل التلاميذ والعاملين بالمدرسة. وقبل أن يدخل السيارة، التفت أرنون وعلى وجهه ابتسامة عريضة، ولوح لزملائه التلاميذ ورفع أصبع الإبهام.

وبعد فصله من المدرسة الداخلية، تم وضع جدول أكاديمى خاص لذلك الفتى المشاكس، وبينما كان أقرانه من الفتية يستعدون لامتحانات الشهادة الثانوية، كان أرنون قد تم اختباره وقبوله فى جامعة لندن سيتى بينما كان يتلقى دراسة مستقلة فى كلية الاقتصاد بلندن.

وفى غضون عام ونصف وهو فى الثامنة عشرة من عمره، تلقى أمر التجنيد بالجيش وعاد إلى إسرائيل. وتم تجنيد أرنون فى وحدة لا يعرف بوجودها إلا القليلون وهى وحدة الانتداب الخارجى ١٠٣٠ . وكانت تلك الكتيبة المرفهة تتألف فى معظمها من أفراد متعددى اللغات ولهم خبرة فى السفر للخارج. وكانت مهمته هى الحصول على الوثائق المطلوبة ومرافقة كبار الضباط عند سفرهم إلى الخارج، بالإضافة إلى مهمته ككاتم أسرار ومترجم فورى ومعاون.

لم يناقش أرنون يوماً خدمته العسكرية فى العلن، والتى كانت فى الواقع أول تعامل له مع الاستخبارات الإسرائيلية. وأثناء تلك الحقبة، تطورت معرفته وكون صداقات وعلاقات استمرت معه طوال حياته.

امرأتان جذابتان هما ديبورا بن إسحاق والتى خدمت فى الوحدة كمديرتها المالية، وإيتى كانر وأصبحتا شخصيتين موثوقاً بهما فى حياته الشخصية والمهنية.

خدم في الوحدة كضابط احتياط فى حرب الأيام الستة عام ١٩٦٧، وفى حرب يوم الغفران عام ١٩٧٣ . لكن أهم خدمة وطنية له كانت أبعد من جيش الدفاع الإسرائيلى،وأبعد من حدود بلده.